في القارب فوجدنا ان الجرحى انزلوا كلهم الى البر وهم نحو اربعين جريحاً فحدقنا الى البر ولما بلغناهُ سمعنا صوت انفجارين عظيمين فالتفتنا واذا المدرسدن احد يغرق اما لان النار وصلت الى مخازنهِ فانفجر بارودها او ان رجالهُ نسفوهُ لكي لا يقع في يدنا وهو آخر الاسطول الالماني في تلك البحار

مصر منذ تسعين سنة

الترجمانة

خرجت مع زينب الى مكتبة مدام بونوم وكنت لم ارها بعد ليلة التمثيل اذ كانت المدلة الاولى فتلطفت في استقبالنا وجعلت تترجم بيني وبين جاريتي . وكان لها دكان ملاصق للمكتبة تبيع فيهِ بعض الاقمشة والتحف والالبسة الاوربية للسيدات فوقفت زينب امام هذا الدكان مبهوتة تنظر تلك البضائع والتحف والاقمشة المطرزة

فاوضحت لمدام بونوم ما جرى لي بعد ان اشتريت الجارية وما اعانيهِ من الصعوبات في الحديث والتفاهم معها وذكرت امتناعها عن الاكل وطلبها لبس الحبرة واستشرتها فيما يجب ان افعل وطلبت منها ان تسألها اولاً هل هي راضية من السكنى معي . وهل ترغب ان اردها الى النخاس . فكلمتها السيدة طويلاً لتعلم خلائل افكارها واخيراً قالت لي يظهر ان جاريتك هذه ساذجة جاهلة ولكنها طيبة القلب وتقول انها مسرورة جداً من امتلاكك اياها ولا تريد ان ترجع الى النخاس . وانما تأبى ان تخرج معك بالملاءة كنساء العامة وترغب ان تلبس حبرة « كالهوانم » او ان تلبس البرنيطة على زي النساء الاوربيات . فقلت لها اني لا احمل نفسي هزءاً وسخرية كيف اخرج وذراعي في ذراع هذه الجارية الصفراء الجلس وهي على الزي الاوربي . فقالت اترك الامر فانا ارضيها ثم نهضت واخذت من الرف قبعة بيضاء من النيل المخرم كتيبات المرضات والخادمات عندنا ووضعتها على رأسها فرأت انها لا تليق بلونها الاصفر وظهرت فيها كمريضة خرجت من المستشفى . ثم عمدت الى طاقية حمراء رومية مطرزة بشريط القصب كطواقي الروميات والالبانيات فرأيتها اكثر مناسبة ولياقة لميشتها ولما وقفت امام المرآة ورأت نفسها بهذه الطاقية المزركشة اللامعة اظهرت السرور والارتياح واستغرقت في الضحك وبدأت تصفق بيديها فرحاً فاشتركت معها في التصفيق والسرور

ثم طلبتُ من مدام بونوم ان تسألها عن بلادها وماضي حياتها فقالت انها لا تعلم اسم

البلاد التي نشأت فيها غير انها تذكر انها ولدت في بلاد بعيدة يحيطها البحر وان اباها واهلها اغنياء ومن اعيان المدينة وقد خطفها وهي صغيرة القراصان العرب الذين كانوا يجولون براكبهم حول شواطىء بلادها لاقتناص الجواري . فلم اشك حينئذ من لون بشرتها انها من جاوى او من جزائر المحيط الهندي المأهولة بالجنس الاصفر . وقالت انها بيعت اولاً لاحد امراء مسقط في عمان ثم اشتراها احد مشايخ القبائل في بلاد الحجاز وعرضت للبيع على الخصاص عبد الكريم في موسم الحجاج فاشتراها واحضرها الى مصر مع الجلابة . وقالت لي مدام بونوم ان سنها لا تتجاوز الثانية عشرة رأني دفعت في ثمنها مبلغاً كبيراً فلو لم اشترها لكانت بقيت عند الخصاص زمناً طويلاً لان الاتراك والاعيان في مصر يفضلون الجواري الحبشيات والسودانيات والروميات على الجواري الصغر . ثم قلت لها ان تسألها لماذا امتنعت عن الاكل وهل تتدين بالبرهمية الهندية فاجابت لا بل هي مسلمة ولا تعرف معنى الديانة البرهمية وانها لم تتعلم سوى لغة بلادها « الجاوية » وانها تفهم قليلاً اللغة العربية تعلمتها مدة اقامتها في الحجاز ولكنها لا تحسن النطق بها كالمصريين . وأما امتناعها عن الاكل فلكونها كانت صائمة حتى مغرب الشمس . فقلت لها — ولكن انقضى رمضان شهر الصوم اجابت انها امتنعت عن الصيام في يوم من ايام رمضان وتصوم الآن بدلاً منهُ

النزهة في الروضة

كان قنصل جنرال فرنسا وعدني عند ما زرتهُ في المرة الاخيرة ان يدعوني يوماً ما يختارهُ لنزهة في ضواحي القاهرة وكنت بانتظار هذا الموعد اذ اركب العربة القنصلية تحت حراسة القواسة والخدم . والعربات في القاهرة نادرة ولا وجود لها الاَّ عند الباشا الحاكم ومعتمدي الدول ولا يجوز لاحد غيرهم ان يقتني عربةً الاَّ باذن خاص . وطرق القاهرة ضيقة متربة غير مستوية لا تصلح لمرور العربات وخصوصاً لكونها مزدحمة بالمارَّة والكلاب . وفي صباح اليوم التالي جاء في قواص القنصل وقرع باب منزلي برأس عصاهُ الفضية قرعاً عنيفاً متواصلاً لينبه الجيران و يظهر لهم منزلتي وحقيقةً ان كثيرين من السكان نساء ورجالاً اطلوا من ابواب بيوتهم ونوافذها ونظروا اليَّ بعين التجلة والاحترام . وقال لي القواص على مسمع منهم « ان سعادة القنصل ينتظرك غداً للنزهة في الروضة كما وعد حضرتك »

ولما ذهب القواص بدأت افكر فيما يجب ان اصنعهُ مع الجارية هل اتركها وحدها مع الطباخ والبواب والخدم وليس من اللياقة والادب ان اصحبها معي في عربة القنصل وهو لا يعلم بعد اني اقتنيت جارية . فهذا الامر جعلني في حيرة وعزمت ان اتخلص من هذه

الورطة باستشارة مواطني جان فذهبت اليهِ وذكرت لهُ حيرتي واوضحت لهُ حرج موقفي ورجوتهُ ان يدلني على امرتر قبطية معروفة بحسن السمعة والادب لاودع الجارية عندهم مدة تغيبي فدلني على رجل كهل قبطي متقدم في السن يدعى منصور ومن حسن الحظ انهُ يتكلم قليلاً اللغة الفرنسوية وقال لي انهُ من الاقباط الذين كانوا في خدمة الحملة الفرنسوية وانهُ بعد خروجها من مصر خاف على نفسهِ فاتبع الجنود الفرنسويين مع من لحقهم من الاقباط ومكث في فرنسا مدة طويلة . ولما نفي بونابرت الى جزيرة البا وتبوأ آل بوربون عرش فرنسا اضطهد حاكم مرسيليا البوربوني كل الاقباط الموجودين في هذه المدينة لكونهم على زعمهِ من رجال الحملة ومن الحزب البونابرتي وتنام من فرنسا فرجعوا الى مصر وبعضهم القي في البحر وكان منصور هذا بينهم فنجا سباحة الى شاطىء آخر في ضواحي مرسيليا واتجأ الى كوخ صياد ثم ركب من هناك سفينة ورجع الى مصر[1] فاخذني جان الى بيت هذا الرجل في حي الاقباط ولم يكن عندهُ سوى امرأة كهلة مثلهِ وكان منزلهُ كبيراً واسعاً الا ان سقوفهُ متداعية للسقوط وجدرانهُ آيلة للخراب وفرشهُ حقير قذر والاوساخ متراكمة فيهِ فلم أرَ هذا البيت صالحاً لسكنى الفتاة ودعوت الرجل وزوجتهُ لان يأتيا الى منزلي ويسكنا عندي ويقوما بخدمتي مدة اقامتي بمصر مقابل اجرة معينة وهي غرش ونصف في اليوم فقبلا هذه الدعوة بسرور وهكذا اطمأن بالي بعد ان رتبت حالة داخليتي ومعيشتي

وفي صباح اليوم التالي خرجت من منزلي وقصدت دار القنصل فرأيت العربة عند الباب وحولها فارسان من القواصة لحراستها في هذه النزهة ورأيت داخل العربة القنصل وقونسلير القنصلية وشيخاً معمماً طويل اللحية مهيب الطلعة عرفني بهِ القنصل . وقال لي هذا

(١) ذكر لي حضرة وهبي بك ناظر المدارس القبطية نقلاً عن بعض الرواة الثقات ان عدد الاقباط الذين رافقوا الحملة الى فرنسا نحو بضعة آلاف رجل بين جنود وتراجمة وخدمة وكان بينهم لباس بقطر صاحب القاموس الكبير المشهور باسمو الذي طبع في فرنسا تحت نظارة برسفال المستشرق الفرنسوي . وذكر لي نقلاً عن سعادة باسيلي باشا تادرس المستشار السابق في الاستئناف انهُ في عهد اسماعيل باشا حضرت جوقة من المطلين واخلاط الفرنسويات وكانت المثلة الاولى بينهن سيدة تدعى مدام منصور كان ابوها قبطاً يدعى المعلم منصور من بقايا الحملة التي خرجت من مصر وتزوج في مرسيليا بفتاة فرنسوية وولدت لهُ هذه الابنة ولما شبت مالت الى فن التمثيل ونبغت فيهِ وكانت لم تزل تذكر اسم ابيها . ومن نوادر ذلك العهد ايضاً ان احد اغنياء الاقباط المدعو ابو طاقية استدان مئة الجنرال بونابرت خمسين الف ريال بصك رسمي مشهور باسمو وبعد اربعين سنة وجد ورثتهُ هذا الصك فذهب احدهم الى فرنسا يطالب الحكومة بالدين وكانت الامبراطورية الاولى قد سقطت فرفضت ابناء هذا الدين القديم فمرور الزمن الا انها وهبت الزعزعة الفرنسوية لابناء هذه الاسرة

هو الشيخ ابو خالد من العلماء المدققين وهو متضلع من العلوم العربية والادبية والدينية وميال الى العلوم والاداب العصرية ويحسن التكلم باللغة الايطالية ومحسوب من الشعراء المجيدين في مصر . وقد دعاني القنصل لمرافقتنا في هذه النزهة للاستفادة من معلوماته . فخرجنا من القاهرة وسرنا في الشارع المؤدي الى بولاق ومن هناك انعطفنا جنوباً الى جزيرة الروضة . وفي الطريق تبادلنا الحديث وقال لي القنصل ان هذا الشيخ من محبي الاصلاح العصري الراغبين في الانخلال من قيود التقاليد القديمة فهو بين علماء العرب كفولتير بين علماء العهد السابق . يميل الى اصلاح الاحكام المطابقة للتمدن العصري وكان من اصدقاء قواد الحملة الفرنسوية . فسألته هل في مصر نوابغ من الشعراء فاجاب . نعم انهم كثيرون ولكننا لسنا في عصر هارون الرشيد والمأمون وغيرهما من ملوك الاسلام الذين كانوا يملأون فم الشاعر درًّا لبيتين من الشعر يرتجلها او يهبونه بدراً من المال لقصيدة ينشدها . فنحن الشعراء الآن فقراء صعاليك اذا نظم احدنا قصيدة غراء مديحاً في امير فلاجل غداء او طعام يقتات به وحكامنا اتراك لا يعرفون الشعر والامة جاهلة فقيرة لا تسر الاَّ بسماع اشعار عنترة او ابي زيد الهلالية في المنتديات والقهاوي واكثرهم اميون [1] . وفي اثناء الحديث قال لي اني

(١) لم يصدق هذا الشيخ فيما زعم من حكام مصر وتنفر لان محمد علي باشا وابنه ابرهيم كانا يقدران العلماء والشعراء حق قدرهم وكان لمحمد علي باشا شاعر معروف يدعى شهاب الدين وقد قرأت سياحة اخرى لاحد علماء فرنسا المدعو ثيردور نافيل وهو من رجال الادب والصحافة زار مصر قبل جيرار دي نرفال وقابل محمد علي باشا وقال انه كان يجل العلماء كثيراً وكان لابرهيم باشا شاعر يدعى ابن الصراف او ابن اشراف Ebn Essaf له كتاب في الشعر والادب دعاه « سهاة النفوس » وهو آية في البلاغة والنظم وسمو المعاني ولو قوبلت منظومات الشاعر لامارتين بها لكانت عنه بالمقابلة بها كنثر مدرسي . وقال هذا الصحافي ان محمد علي باشا الى اولاً ان يقابله وهو يحسبه جاسوساً او جزويتياً وكلاهما مكروهان عنده ولكنه لما تأكد انه صحافي من رجال الادب سمح له بمقابلته مراراً وفتح له صدره وكلمه في السياسة والعلم والاصلاحات العصرية وقال عنه انه شيخ جليل ذو علامة مهيبة ومن نوابغ الزمن في الذكاء والفهم ومن ذوي العزائم الشهاء فسأله الصحافي في الزيارة الثالثة عند الكلام عن السياسة . لماذا لا تطلب جعل مصر استقلال مصر المطلق عن تركيا . اجابه الى احسن حملات جرائد الاحرار عندكم فربما لا تؤيدني في الاستقلال . وقال عنه ايضاً انه كان واسع الاطلاع ملماً باحوال السياسة الاوربية وبخصائل الاحزاب الفرنسوية وانه مشترك في اكثر جرائد فرنسا ويكلفها بالشراجة يقرأون له ملخصها . وقال انه كثير الاعجاب بنابوليون ومبادئه الحربية وكان يدعوه « بونابارتو » القائد العظيم وقال عن ابرهيم باشا انه رجل حربي غزا بلاد اليونان وايد فيها سلطة الباب العالي وانه اسر كثيرين من عظماء الاروام ونساءهم حتى ملأ مصر منهم . وقال انه قبل رحيله من مصر ودع محمد علي باشا واهدى اليه مجموعة كاملة من رسوم ملابس جنود الحرس الامبراطوري من عمل شارليت الرسام الشهير فاعطاه عوضاً عنها خنجراً مرصعاً ورمحاً من رماح المماليك كان للامير مراد بك

معجب باتين من علمائكم الفرنسويين نبغا في علوم اللغة العربية الفصحى وعرفا اسرارها ودرسا شواردها واشعارها ومعجماتها اللغوية درساً مدققاً . فقال القنصل انهُ يعني الدكتور بيرون المستشرق الشهير والمسيو فرسنل قنصل فرنسا في جدة . واستأنف الشيخ الكلام فقال « ان علماءنا يقضون حياتهم في درس العلوم الدينية وكتب اللغة وحواشيها وهم متربعون على الابسطة يدخنون بالنارجيلة ويأبون الخروج من تقاليدهم القديمة ويستنكفون اقتباس علوم الافرنج مع ان هؤلاء اخذوها منا حينما كانت الشرق زاهراً في العلوم عند العرب في الاندلس »

وبعد مسير ساعة في طريق منسمة مغروسة على جانبيها الاشجار وصلنا الى مروج خضراء وحقول مزروعة فيها اشجار التوت والنخل والتين ومسيجة بنبات الصبير (التين الشوكي) وهي من اراضي ابراهيم باشا كانت قبلاً بوراً قاحلة فجعلها جناناً عامرة ورياضاً زاهرة وبنى فيها القصور الفخمة (وهي اراضي القصر العالي)

وواصلنا السير جنوباً الى ان وصلنا الى قناطر شاهقة حيث ترعة الخليج وكانت الفية يجري الماء بها الى القلعة ومن هناك عبرنا الى جزيرة الروضة . وهذه الترعة فرع من النيل على ضفتيها المقاصف البديعة والبساتين النضرة وعلى حسب التقاليد القديمة ان ابنة فرعون التقطت موسى الطفل هناك اذ كان ملقىً بين البردي فانتشلتهُ وربتهُ عندها في قصر ابيها الملك كما جاء في التوراة

الروضة والمقياس

والروضة جزيرة صغيرة زاهرة بين النيل وترعة الخليج وهي من املاك ابرهيم باشا جعلها جنة فيحاء وبنى فيها القصور والمقاصف وخصوصاً مقصف المقياس وارضهُ واعمدتهُ من المرمر وبالقرب منهُ جامع بديع الصنع حولهُ الحدائق الغناء وقد غرس فيها كل الاشجار المثمرة التي اتى بها من جميع انحاء الشرق وجلب اليها من الهند كل الاشجار الغريبة كالباوباب والبامبو والغاب والنارجيل والغوافا والمانجا . وطرق هذه البساتين مظللة بالنباتات المتعرشة ودوالي العنب وعلى جانبيها الزهور والرياحين فاصبحت هذه البقعة الجميلة كمعرض نباتي حاوٍ كل الاشجار الشرقية والمتدية . وان كثيراً من المعارض النباتية الاوربية اتت بهذه المغروسات من الهند فلم تنمُ فيها مع شدة المحافظة عليها والوسائط التي استعملت لانمائها والفضل كلهُ في عمران الروضة يرجع خصوصاً الى ابرهيم باشا

قضينا نزهة جميلة تحت قباب الباوباب وظلال اشجار التمر الهندي والنارجيل وحولنا

مروج نضرة يعطر الارجاء شذا ازهارها وو ياحينها العطرية وعند مجاري السواقي اشجار الصفصاف الباسقة . وجلسنا على ضفاف النيل تحت ظلال الصفصاف الباكي (المسمى) تسبح اغصانهُ مع مجرى الماء كانها تحت قسطاطٍ زمردي . وتلطف ناظر الروضة ففتح لنا باب ايوان المقعف عند المقياس وكلهُ من المرمر وجلسنا لتناول الطعام . ثم انتقلنا الى كشك الحديقة وهناك « جيلابة » اصطناعية يصعد اليها بسلالم بديعة من اغصان الشجر حولها الزهور والرياحين وفي اعلاها كشك بنوافذ زجاجية تطل على مناظر بديعة تأخذ بمجامع القلوب

وكانت الشمس قد مالت الى الغروب فظهرت امامنا من جهة مصر ومنائرها وجوامعها وقبابها الشاهقة ومن جهة اخرى مصر القديمة وجامع عمرو ومن الغرب الاهرام الكبرى الثلاثة وراء الجيزة كانها تناطح السحاب تلك الاهرام التي بنيت منذ اربعة آلاف سنة والتي وقف بونابرت عندها يخاطب جنودهُ بقولهِ « ان اربعين قرناً تنظر الى انتصاراتكم المجيدة » واني لست من رأي استاذي فولتير الذي قال « ان اهرام مصر لا توازي قن دجاجي » بدعوى ان هذا البناء العظيم شيد بدماء الملايين من البشر لاجل دفن جثة انسان واحد

ثم جلسنا في الكشك نتحدث و بدأ الشيخ ابو خالد يروي لنا عن بناء الاهرام روايات غريبة وقال ان بانيها جيّان بن جيّان قبل الطوفان بثلاثمائة سنة تبعاً لوحي احد الكهنة المصريين المدعو اقليمان وقد تنبأ بحدوث طوفان عام يعم المسكونة كلها فامر ببناء الاهرام لتكون منجاة لاهل مصر وملوكها من الغرق وقال ان في داخلها كتابات علوم السحر والفلك وهي ملأى بالكنوز والطلاسم الى آخر ما هناك . وبعد ان تفرجنا على المقياس وقصر الباشا وكان وقتئذٍ خالياً ذهبنا الى الناحية الشمالية من الروضة ورأينا مدافن اسرة ابرهيم باشا وحرمهِ واولادهِ وعددها نحو ستين قبراً وكلها مبنية بالرخام الابيض والاعمدة المرمرية وعلى شواهدها الاقمشة الثمينة من الكشمير الفاخر والدمقس وحول هذه القبور الاشجار الباسقة وقصاري الزهور . ومن غرائب الاقدار انهُ رغماً عن كثرة نسائهِ لم يعش لهُ ولد واحد من ذريتهِ . ثم وصف لنا الشيخ معيشة حرم الباشا ونساء الحكام والامراء في داخل قصورهن . وعند المساء رجعنا الى المدينة

(وفي المقالة التالية وصف الاهرام وما جرى لهذا السائح من الحوادث الغريبة والنوادر الفكاهية مع جاريتهِ ومنصور القبطي . واحد العلماء الالمان من اعضاء البعثة العلمية البروسية ديمتري تقولا